وجوده فهم محجوجون بانهم يدّعون ما لا يقدرون على اثباته فانكارهم لامكان الخلود يقتضي انهم يعرفون ما في الكون غير المنظور معرفة تجيز لهم ذلك الانكار وقد بانّ ان معرفة ذلك محال او ثاني المحال . فثبت ان الخلود محتمل وان العلم لا ينفي احتماله

ثم اذا ثبت امكان الخلود بقي علينا ان نعزّز وقوعه بالقياس التمثيلي العلمي على ما تقدم . وهذا كلام اجمالي ابسطه لك مفصلاً واسرد عليك الادلة المثبتة له على ما اقتطفتها من اشهر علماء هذا الزمان وادراهم بغوامض الطبيعة ومخبآتها[٧]

مذهب الارتقاء وحرّيّة العلماء

يُحكى ان الذئب اضمرهُ الجوع واضناهُ الهزال فلقي الكلب ممتلئ البدن كثير السِمَن فقال له سبحان مقسّم الحظوظ فان السمن قد اثقل حركاتك وانا اتضوّر جوعاً وقد اضنائي الهزال فقال له الكلب تعال انزل ضيفاً عليّ فاقاسمك في مآكلي ومشربي واساكنك في منزلي فذهبا معاً . ثم حانت من الذئب التفاتة فرأى عنق الكلب ماطاء قد ذهب الشعر عنها فقال ما الذي اصاب عنقك قال امر لا يذكر فانما هو اثر الطوق الذي يطوقني به اصحابي ليلاً فانهم يطعموني نهاراً ثم يربطونني لاحرس منزلهم ليلاً . فلما سمع الذئب ذلك ولّى عنهُ وهو يقول امنا بعيشك مرّيًا فانا من يشتري الطعامَ بالحرية ولا خير في لحم ورفاق دونهما الذل والاسترقاق

و يلوح لنا ان اكثر ذوي الاقلام في هذه الايام يرهنون اقلامهم وآراءهم ليل غيرهم فتراهم يطوون على نصرة الحق كشحاً ويجارون على الخطإ ولو خالف اعتقادهم . واذا سألتهم قائلين أنأتفعل ذلك حبًّا بالمسالمة واجتنابًا لاضطراب البال فنحن مكلفين بالدفاع عن الحق في هذه المسألة فليدافع غيرنا عنها . ومن البلية ان هذه سياسة كثيرين من ارباب الجرائد ومشرب السواد الاعظم من الناس ولا سيما في المشرق . فكم من أناس يلومون رجلاً اطاع صوت ضميره وانتصر لما يعتقد صدقهُ مخالفًا فيهِ لقول الكثيرين . ولو تتبّعت ملامهم الى غايتهِ لوجدتهُ ملامًا على الصواب بموّهونهُ بمثل هذه الاقوال ان فلانًا غير حكيم ولم يدارِ سياسة هذا العصر ولا راعى تعليم تلك الفئة بل قد حملتهُ شجاعتهُ الادبية على مطاوعة ضميره وابراز ما استكنّ في خاطره . ولو حاورتهم في ذلك لوجدت لسان حالهم يقول ان المسالمة مقدّمة على ما سواها واجبة واولى من الحق فداها وهذا زعم فاسد لا يقبلهُ من عرف تاريخ الناس واسباب تقدّم البشر . فلا خير في المسالمة اذا كان الحق يموت دونها ولا كان الاتفاق اذا جُعل على الباطل اساسه

(٧) مثل العلّامتين الانكليزيين سنورث وتات وغيرهما

لا يخفى ان الحرية في البحث كانت من اعظم البواعث على تقدم الاوربيين في كل صفة من الصفات الحميدة التي امتازوا بها وفي العلم والسياسة والغنى والمجد . ومع انها لم تخطر على الشرقيين لو ارادوها فالذي يحظرها عليهم الآن انما هم جماعة من الافرنج واخصهم اناس خرجوا من مواطنهم فلاذوا الى الشرق يتاصبون فيه من لا يوافقهم على غاياتهم . ألا انهم طعمة الجرويشة : فلو بحثت عن اعالم في سورية مثلاً لوجدت انهم لم يتركوا باباً للفائدة الا حاولوا سدّه في وجه غيرهم وانا لم يحاول فتى من ابناء الشام خدمة وطنه الا وقفوا له بالمرصاد وارادوا صدّه انا لم يكن في خدمتهم نفع لهم . وقد جعلوا دأبهم منع الناس عن البحث وتقييد طلّاب المعارف عن إعمال النظر في المسائل خوفاً من ان ينتبه الناس الى وجوب الحرية في البحث فيصعب امتلاك عقولهم

ولهذا ساءهم انتشار المقتطف في البلاد وكان قذى في عينهم دون سوام من العباد ولا عجب فالعلّة معروفة

قد تنكر العينُ ضوء الشمس من رمدٍ ويكرهُ الفمُ طعمَ الماء من سَقَمِ

ومع علمنا بعدم خلوص طويتهم في تصديهم الدائم للمقتطف كنّا لا نرى في كلامهم غير ما عرف عنهم من دماثة الاخلاق الظاهرة واخفاء السم في الدسم حتى افتتحوا مسألة المذهب الداروني وارتقاء الاحياء فتناول كل ما في صدورهم بكلام تنبو منه اسماع الادباء ويمجّهُ ذوق المهذبين وابدوا للناس باطنهم بلا تمويه فعُرف يومئذٍ كنههم اذ الاناء لا ينضح الا بالذي فيه

غير اننا لما كنّا لا نقصد فيما نكتبهُ الا النفع ونقرر الحقائق اقتصرنا معهم على ابداء الحقيقة كما ترى في السنة الثامنة من المقتطف وصمنا أذاننا عمّا بقي . وهذه خطتنا نلزمها مع كل المناظرين اذ ليس قصدنا ثلب الاعراض ولا معاداة الناس ولا رغبتنا في المباهاة والتحيل في البحث والتفنن باساليب البرهان فهذه كلها نتركها لمن يحبُّ الافتخار بها

وانما نقصد تقرير الحقائق ولذلك نعود المرة بعد المرة الى موضوع المناظرة ولو مرت عليه الايام الطوال ونُمي فيه القيل والقال حتى ننضح صحنه للقارئ اتمّ الوضوح وننفي منه الشبهات . ولهذا السبب قد لا نعبأ بالرد على من يستأنف معنا الحوار دون ان يأتي بحقائق جديدة خوفاً من اطالة الكلام على غير طائل

فمن المسائل التي نعود اليها الآن المذهب الداروني وبعبارة أخرى مذهب النشوء والارتقاء وخلاصة هذا المذهب ان كل ما في الارض من انواع الحيوان والنبات متفرّع عن اصل واحد او عن بضعة اصول . وقد توسع جماعة في هذا الرأي حتى اطلقوهُ على كل ما في الكون من المخلوقات حيّة كانت او جامدة عاقلة او غير عاقلة فعللوا به كل كائن مادّي من بدء وجود الهيولى الى ان

تحوّلت الى سدام وثمود وعوالم ذات نبات وحيوان وسكان عاقلين وعاداتهم واصطلاحاتهم واعتقاداتهم وعلومهم وشرائعهم. واشتغل فيها بشهر العلماء من الافرنج في كل الفنون والعلوم وعمموه وقرّبوه من الافهام حتى ادرك الخاصة والعامة فحواه بعد عشرين سنة من بداءة انتشاره. ولما مات صاحبه منذ بضع سنين وكان قد بلغ اسمي ذرى الشهرة بين ارباب العلم ذكرنا ملخص سيرته كجاري عادتنا ثم فصّلنا رأيه في مقالتين في المجلد السابع من المشتطف ضمّناها اقوى ادلّته والاعتراضات التي اعترضوا بها عليه دون ان نبدي رأينا خصوصيًا معه او عليه

فلم يرُق ذلك في عيون الجزويت بل رمونا من اجله بالكفر واتهمونا بافساد العباد مدّعين ان المذهب الداروني مذهب كفريّ لا يقبله الاّ الكفرة وان ناقل الكفر كافرٌ خلافًا لما يقوله كل احد سوانا. ولما كانوا يدّعون التصدّر في كنيسة قد حوت عددًا غفيرًا من افاضل اهل المشرق وادبائه وكان قولهم هذا مخالفًا لما يقوله علماء اللاهوت من الكاثوليك في اوربا احببنا بيان حقيقة الواقع في ما يأتي

ان الذين يذهبون مذهب الارتقاء طائفتان طائفة تقول ان الكائنات كلها قد وُجدت بتحول بعضها عن بعض بحسب النواميس الطبيعية ولا دخل لقوة وراء الطبيعة في تحولها هذا ولذلك يُسمّون بالماديين لانهم لا يجعلون بفعل قوة فائقة الطبيعة في ارتقاء الكائنات. وطائفة تقول ان الكائنات تحوّل بعضها عن بعض بحسب النواميس الطبيعيّة ولكن تحت ارشاد قوة خالقة فائقة الطبيعة وبحسب قصدها ولذلك يُسمّون بالروحيين. فوجود هاتين الطائفتين دليل قاطع على ان مذهب الارتقاء ليس مذهبًا كفريًا في ذاته وعلى ان المسلّم به يمكن ان يكون مُعطلاً او مؤمنًا كما ان العالم بالنحو مثلاً يمكن ان يكون كذلك ايضًا

وقد وقع البحث حديثًا بين علماء اللاهوت من الكاثوليك ببلاد الانكليز في ما اذا كان مذهب الارتقاء يوافق ما جاء في التوراة عن خلق الانسان وذلك ان عالمًا كبيرًا من العلماء الطبيعيين الكاثوليك[1] ذهب الى ان الارتقاء على مذهب الروحيين المار ذكرهُ مطابق لما في التوراة عن خلق الكون والانسان وانهُ لا حرج على الكاثوليك من القول به اذا ترجّح ظنّهم في صحته. فساء هذا القول بعض المتطرّفين واسمهُ الأب مَرفي فانكرهُ[2] وادّعى انهُ لا يُباح للكاثوليك قبول هذا المذهب ولا الاعتقاد بان جسد الانسان قد ارتقى حسب النواميس الثانوية زاعمًا ان الارتقاء لا ينطبق على مفهوم الكتاب ولا على تعليم الكنيسة. فكان كلامهُ هذا باعثًا على البحث

(١) هو سنت جورج ميفار

(٢) في مقالة عنوانها الايمان والارتقاء أدرجت في الجريدة الاكليريكية الارلاندية

الذي نحن بصدده فردّ عليهِ الأب كلارك (٣) وهو من لاهوتي الكاثوليك ايضاً بما فحواهُ انهُ اخطأ في زعمهِ الذي لا يؤيّدهُ الكتاب ولا يوافقهُ تعليم الكنيسة. ثم تلاهُ لاهوتي آخر كاثوليكي (٤) فنقد دعوى الاب مرفي المذكور بثلاثة امور الاوّل انهُ (مرفي) فسّر اقوال الكتاب تفسيراً مخالفاً لما فسّرها بهِ القديسان أغسطينوس وتوما. والثاني انهُ عاجز عن اثبات اجماع العلماء على ما ادّعى انهم مجمعون عليهِ. والثالث ان القديس توما لم يخرج الاسباب الثانويّة من الدخول في تركيب جسد الانسان. وتلاهُ لاهوتي ثالث وهو الاب فوكان (٥) فردّ بما فحواهُ انهُ يُباح للكاثوليكي ان يرى رأي الارتقاء ولا يخاف عليهِ من مخالفة قول الكتاب او تعليم الكنيسة.

فترى مما تقدّم ان ثلاثة من اربعة من علماء اللاهوت الكاثوليكيين ذهبوا الى ان مذهب الارتقاء لا يخالف منطوق التوراة بل لا يخالف تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة وان الكاثوليكيّ يمكن ان يقبلهُ ولا يكون في خطر. فما قولك بعد هذا في طغمة الجزويت في بيروت الذين يكفّرون من يقتصر على تلخيص هذا الرأي وإيضاح ماهيتهِ دون ان يتعرض لقبولهِ او لرفضهِ. أجُبنًا لا تحسبهم ام متجاهلين او محقّين تعدُّهم ام متنزين

اما البحث عن صحة مذهب دارون وفسادهِ فيكون بطريق العلم الطبيعي لا بغيرهِ فان هذا المذهب مذهب طبيعي والادلة المنقولة على صحتهِ وفسادهِ هي طبيعية ايضاً ولذلك لا يعبأ بنقض احدٍ لهُ الاّ بالدليل الطبيعي. فكما ان المسائل الفقهية لا تحلُّ بالبراهين الهندسية ولا القضايا الفلكيّة بالقواعد النحوية هكذا مذهب دارون لا يُنقض بالبراهين اللاّهوتيّة ولا بالادلة الشعريّة والكتابيّة. والمناظرون فيهِ فريقان إمّا علماء اعلام يبحثون في الطبيعة ويستخرجون منها الأدلة الطبيعيّة على صحتهِ او فسادهِ وهؤلاء افراد معدودون في الشرق ولم نرَ لاحد منهم كتابة في هذا المعنى. واما معتمّون للمعارف يتناولون آراء اولئك الجهابذة ويسطونها فيقربونها من فهم الجمهور. وهؤلاء هم الذين كتبوا في هذا المعنى من اهل الشرق وكتاباتهم متفاوتة في القيمة والجلاء والاقناع بحسب تفاوتهم في المعارف والدرس والاجتهاد وكرم الاخلاق ودماثة الطباع ومعرفة اللغات التي ينقلون عنها. فمنهم من يُناظر ملتزماً خطة الحشمة والأدب قاصداً تقرير الحقائق ومنهم من يناظر بالقذف قبل الدليل والتقريع قبل البرهان قاصداً ايهام الناس بانهُ شيء وهو ثرثارة لا يخلص في ما يقول. الاّ انهم مهما كتبوا في هذا المعنى فخلاصة كتابتهم لا تزيد عن هذا الحكم وهو ان جماعة من فحول العلماء يذهبون الى ان مذهب الارتقاء صحيح وجماعة أخرى يذهبون الى انهُ غير صحيح والحق إمّا ان يكون مع الفريق الواحد او الآخر او ضائعاً بين الفريقين.

(٣) في جريدة تابلت الانكليزية (٤) في الجريدة الانكليزيكية الايرلاندية

لان القطع بصحة هذا المذهب او فساده يكون باجماع اولئك العلماء الاعلام عليه وهذا لم يتح حتى الآن لجمهور من يتدبر الاحوال التي تقلبت على هذا المذهب لا يسعه الا الحكم بانه لا يخلو من حقائق كثيرة راهنة صحيحاً كان في ذاته او فاسداً. فقد كان معظم العلماء اضداداً له اول انتشاره ثم لم ينقض عليه عشرون سنة حتى صار اكثرهم انصاراً له. وقد كُشفت به غوامض خفيت على الناس ازماناً وحلّت معضلات لم يستطع العلماء حلها بغيره. ولسنا نعلم ان حقيقة من الحقائق العلمية التي كُشفت بعد انتشاره تناقضه مناقضة حقيقية عدا الحقائق العديدة التي لا تطبق الاعلى. وزد على ذلك انه بعد ما كان علماء اللاهوت من النصارى يعدّونه منافياً للدين صار كثيرون منهم يعدّونه موافقاً له

هذا ولو راجعنا تاريخ اشهر الحقائق العلمية لرأينا الناس يتعصبون عليها في بدء ظهورها ثم يرجعون فيقبلونها. ألا ترى ان كوبرنيكوس لما خالف رأي بطليموس فذهب الى ان الشمس ثابتة في مركز العالم والارض دائرة حولها احرق ديوان التفتيش كتابه ولو لم يتوفّه الله قبل اشتهار الكتاب لاحرقه معه كما اضطهد غليليو وضيّق عليه واكرهه على اطّراح رأيه كما هو مشهور. ثم تبيّن للكل خطاؤهم فعادوا خاسرين واقرّوا بغلطهم صاغرين واعترفوا ان دوران الارض حول الشمس لا ينافي الدين. ولما قام العلّامة شارلس لَيل واقرّ علم الجيولوجيا على اساس مكين واثبت هو وغيره ان العالم اقدم مما يزعمون وان ايام الخلق المذكورة في سفر التكوين ليست سبعة ايام من الايام المعتادة بل سبعة ادهار لا يعلم طولها الا الله هاجوا عليه وماجوا ورشقوه بسهام الملام وهزأوا بمنابعيه حتى اوهموا الجبناء منهم عن كشف ما في ضمائرهم. ثم قوي الحق عليهم فَسقطوا في يدهم وسلموا بصحة قول لَيل مكرهين. وانت خبير انه لما اذاع داروين مذهبه لم يعرف من ابن يتقي سهام الطعن حتى فرغت جعاب الطاعنين فتراهم الآن يحسبون رأي الارتقاء بل يقول فريق منهم انه لا يضرّ بالدين. على ان ذلك لا يقتضي ان تكون آراء العلماء كلها صحيحة فالفاسد منها بعدد الصحيح ولكن الذين يبينون فسادها هم العلماء كما بيّنوا فساد رأي هكلي بوجود البائيبيوس المتوسط بين الحي والجماد ورأي باستيان بان الحي قد يتولّد من غير الحي ورأي اغاسز بان اصل البشر من آباء متعددين الى غير ذلك مما خدم به اهلُ العلم علماء اللاهوت والدين. ويا حبّذا لو كان اللائمون للعلماء يتأمّلون قبل الملام كلام غمالائيل الفيلسوف النربي الشهير لما اشار به وجّه طائفة في معاملة الرسل المسيحيين قال "ان كان هذا الرأي من الناس فسوف ينتقض. وان كان من الله" (كأن يكون حقاً اودعه الله في الطبيعة ثم اعلنه عن يد بعض العلماء) "فلا تقدرون ان تنقضوه البتة لئلا توجدوا محاربين لله ايضاً"